أعلام التربية والتعليم في الاسلام :

أبو بكر بلعربي

(٤٦٨ - ٥٤٢ هـ)

الاستاذ سعيد الديوه جي
مدير متحف الموصل

الامام الفذ القاضي ابو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري قاضي قضاة كورة اشبيلية .

نشأ في بيت عرف بالعلم والادب والفقه ، كان أبوه باشبيلية بدرا في فلكها ، وصدرا في مجلس ملكها ، اصطفاه المعتمد بن عباد ، وولاه الولايات الشريفة ، وبوأه المراتب المنيفة ، فكانت داره مجمع أهل الفضل والبلاغة ، ومجلس أهل الادب والنباهة .

وكان خاله ابو القاسم الحسن بن عمر بن الحسن الهوزني الاشبيلي ، (425-512 هـ) من علماء اشبيلية وفقهائها ، رحل الى المشرق ، واخذ عن علمائه وفقهائه ، وحج بيت الله الحرام ، وعاد الى بلده ، فقيها عاليا في روايته ، ذاكرا للاخبار ، قصده الطلاب واخذوا عنه .

كان أبو بكر ذكي الفؤاد ، قوي الحافظة ، سريع الاخذ حفظ القرآن الكريم وهو ابن تسع سنين ، ثم ثلاثا لضبط القرآن الكريم والعربية والحساب ، ثم درس غريب اللغة والشعر .

وكان له من مجلس والده خير معين ، ينهل منه ، يشفي غليله ويطفي ظمأه فيصغي لما يدور فيه من أحاديث ، وما يجرى من مناظرات ومساجلات في العلم والادب ، وما ينشد فيه من شعر ، وربما شارك أبو بكر بابداء الرأي في بعض ذلك .

وكان يتردد الى مجلس خاله مجلس الفقه والحديث والاخبار حيث يحظى بالاتصال بطبقة من الفقهاء والمحدثين ورواة الاخبار ، يتناظرون في المسائل الفقهية ، ويروون أصدق الاحاديث النبوية ، واجمل الاخبار المتعلقة بعلمهم .

وكان خاله يحدثهم عن علماء المشرق ، ومعاهدهم العلمية المختلفة ، وحلقاتهم الكبيرة المتنوعة التي كانت تعقد في رحاب المساجد ، وتهافت الناس على حضورها ، والانصات لما يدور فيها .

فشب أبو بكر وفي نفسه أمنية الرحلة الى المشرق ، ليأخذ عن علمائه ويحضر مجالس العلم المختلفة وينهل من خزائن الكتب الكثيرة .

وبعد انقراض دولة بني عباد ، نكب والده في اشبيلية ، فضاقت الدنيا في عينيه وعزم على أن يرحل مع والده أبي بكر الى المشرق ، وهو ما كانت تصبو اليه نفس أبي بكر .

فركب البحر يوم الاحد مستهل ربيع الاول سنة 485 هـ وكانت سن أبي بكر - اذ ذاك - سبعة عشر عاما .

وفي عباب البحر غرقت السفينة التي كانت تقلهما وخرج مع والده ، منهوك القوى ، رث الحال ، لا يملك ما يسد به رمقه ، فانتهى الى منازل بني كعب بن سليم ودخل على رئيسهم - وكان يلعب الشطرنج فتقدم أبو بكر منهم ، وأشار على رئيس القوم بما جعله يتفوق على خصمه فعظم في عينيه ، وظهر منه خلال ذلك من اطلاعه في الادب ما اعجب به الحاضرون فخلع عليه وعلى أبيه ، واعانهما على مواصلة سفرهما .

وفي طريقه أخذ عن الشيوخ الذين اجتمع بهم ، وناقشهم في بعض المسائل ، فاعجبوا برأيه وعلمه .

وفي بلاد المشرق زار اكبر المدن ، وأهم المراكز العلمية فيه ، مثل الاسكندرية والقاهرة ودمشق وبغداد والحجاز ، واتصل بأشهر العلماء والادباء

واصحاب الـــراى ، كالاغاطى فى الاسكندرية ، وأبى الحسن الخلعى (المتوفى سنة 492 هـ) فى القاهرة ، وأبى الفتح المقدسى (المتوفى سنة 490 هـ) فى الشام وامام الحرمين (المتوفى سنة 498 هـ) بمكة المكرمة والتبريزى فى بغداد ، وقرأ عليه الادب .

وكان سروره كثيرا عندما التقى بالامام الغزالى ، فيحدثنا عن هذا ويقول : ورد علينـا ـ فى بغداد ذا نشحند ـ يعنى الامام الغزالى ـ برباط أبى سعيد ، بازاء المدرسة النظامية ، معرضا عن الدنيـا مقبلا على الله تعالى ، فمشينا اليه ، وعرضنا امنيتنا عليه ، وقلت له : أنت ضالتنا التى كنا ننشد وامـــامنا الذى بـه نسترشد ، فلقينا لقاء المعرفة ، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة ، وتحققنا ان الذى نقل الينا من الخبر على الغائب ، فوق الشاهد » ، فلازم الامام الغزالى ، وأخذ عنه ، واستفاد من علمه وتوجيهه .

حج الى بيت الله الحرام سنة 489 هـ ، ثم عاد الى بغداد مرة ثانية ، واتصل بعلمائها ومفكريها واخـــذ عنهم وناقشهم ، ثم رحل الى دمشق وبقى بها مدة ، ثم رحل الى الاسكندرية ، وتوفى ابوه فيهـا سنة 492 هـ وبعد أن شفى غليله ، قرر العودة الى بلده وقد حصل على قسط وافر من العلوم والآداب والآراء الطريفة التى اتحف بها بلده . عاد الى اشبيلية « بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة الى المشرق الا الباجى . »

فكان «من أهل التفنن فى العلـــوم ، والاستبحار والجمع لها ، متقدمـا فى المعارف كلهـــا متضلعا فى أنواعها ، ناقدا فى جميعها ، حريصا على اداء نشرها ، ثاقب الذهن فى تمييز الصواب منها يجمع الى ذلك كله أدب الاخلاق ، مع حسن المعـاشرة ، ولين الكنف ، وكثرة الاحتيـال وكـــرم النفس ، وحسن العهـــد ، وثبـات الود » .

وقد قال عنه الحجارى : « لو لم ينسب لاشبيلية الا هذا الامام الجليل ، لكان لها من الفخر ما يرجع عنه الطرف وهو كليل » .

ذلك ان ابا بكر لم يكن ناقلا أو مقلدا لغيره ـ ممن أخذ عنهم فى المشرق والمغرب ـ بل كان فاحصا لكل ما يراه او يطلع عليه ، ناقدا بصيرا يعلل الامـــور ومسبباتها ، يتحرى الحقيقة ، يناقش العلماء والادباء الذين ياخذ عنهم ، ويعرض عليهم مـا يبدو له مـــن وجهات نظره لذا رجع الى بلده بعلم غزير ، وآراء صائبة ، اقتبسها مما قرأه واطلع عليه فهو أحد المصلحين الذين أبوا الجمود ، والاكتفاء بما كانوا عليه بل نجده يجاهر بضرورة تحكيم العقل فى كل الامور ومناقشتها بالمنطق ، واتباع الاصلح منها .

كثيرهم الذين رحلوا من الاندلس والمغرب الى بلاد المشرق فاخذوا عن علمائه ، ودرسوا فى معاهده وعاد أكثرهم بعلم واحد او علوم معينة ، قصروا همهم عليها ، وأفادوا قومهم بما حملوه اليهم .

أما القاضى ابو بكر بن العربى ، فانه كان واسع الافق ، دقيق الملاحظة ، باحثا عن مختلف نواحى العلم والادب ، مربيا كبيرا ، وعالما جليلا ، أخذ مختلـف العلوم والمعارف وتفقد كل طريف وقويم ، مما أبدعه المشارقة فى المشرق وقارنه بما هو عليه فى الاندلس والمغرب وأبدى آراء قيمة فى اصلاح ما عندهم واقتباس ما رآه حسنا فى المشرق وهو مصلح كبير وناقد بصير ، وواضع أسس نهضة علمية عملية .

وسنقتصر بكلامنا هذا على وجهة نظره فى المناهج الدراسية التى كان يتبعها المشارقة والمغاربة فى تعليم الصبى وتوجيهه ، وما يراه هو فى اتباعه منها .

اتصل بالمشرق بارباب التعليم ورجـال التربية ، والمدرسين والفلاسفة وتفقـــد الكتاتيب والمكـــاتب والمدارس ومعاهد العلم ، وناقش المعلمين والمربين فى الطرق التى يسلكونها فى التعليم والتهذيب ، فوجـد أن للمشارقة طرقا رشيدة ، وآراء صائبة فى سياسة الصبى ، وتعليمه وتوجيهه الى الخير والفضيلة والحياة العملية . وقد أعجب بهذا لانه وجد أول مـــا يتعلمه الطفل فى «الكتاب» هو القرآن الكريم وأمور الديـــن والكتاب والحساب . وقد فصل المربون سبب تقديـم هذه على غيرها لاهميتها فى تقويم الطفل وتوجيهه الى التمسك بالدين الحنيف ، فالقرآن الكريم وأمور الدين ، مما يحتم الشرع تعليمه ، لتنشأ الطفل عارفا بأحكام دينه ، مؤديا شعائره ، متمسكا بفضائله ، سالكا طريق الخير والرشـــاد .

أما الكتاب والحساب فيتعلمهما بعد القرآن الكريم وأمور الدين لان «عمود صلاح الدنيا والدين ، انمـــا يعتدل فى نصابه ، ويقـــوم على أساسه فى الكتـــاب والحساب » هذه المواد الاربع كان يتعلمها الصبى فى الكتاب قبل غيرها .

وحدد المربون ما يتعلمه الطالب من كل منها مما يلزمه فى حياته العملية ، فان تجاوز المعلم ذلك شغل الطالب بأشياء هو فى غنى عنها .

فيعلمه من القرآن الكريم السور القصار ، التى تعينه على أداء الصلاة ، ويعلمه اركان الدين الاسلامى بصورة مجملة ، فلا يكثر عليه من القيل والقال ، وتضارب الآراء ، اذ ذلك مما يعكر عليه صفو العلم ويولد الملل .

أما النحو فكانوا يقتصرون منه على ما يلزم التلميذ فى تقويم لسانه وقلمه ، قال الجاحظ : « فلا تشغل قلبه الا بقدر ما يؤديه الى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام فى كتاب ان كتبه ، وشعر ان أنشده وشىء ان وصفه ، وما زاد على ذلك ، فهو مشغلة عما هو اولى به ، ومذهل عما هو أرد عليه منه ، وعويص النحوى لا يجرى فى المعاملات ، ولا يضطر اليه ... »

ويعلمونه من اللغة « صحيح الكتاب ، وتخلصهم باللفظ السهل ، وراحة الكفاية ، ويحذره التكلف واستكراه العبارة ، فان أكرم ذلك كله ما كان افهاما للسامع ، ولا يحوج الى التاويل والتعقيب ، ويكون مقصورا على معناه ، لا مقتصرا به عنه ، ولا فاضلا عليه »

ويعلمونه من الخط كتابة الحروف وهجائها «فان أدنى طبقات الخط مع صحة الهجاء بلاغا » .

أما الشعر «فينبغى أن يروى الصبى الرجز ، ثم القصيد ، فان رواية الرجز أسهل ، وحفظه أمكن ، لان بيوته أقصر ، ووزنه أخف ، ويبدأ من الشعر بما قيل فى فضل الادب وعيب السخف ، وما حث فيه على بر الوالدين ، واصطناع المعروف ، وقرى الضيف ، وغير ذلك من مكارم الاخلاق » .

وكان المشارقة يعنون بتعليم الحساب ويقولون : « انه بمثابة سلة الخبز » اى يحتاجه كل أحد فعلى المعلم أن يقتصر على تعليم الحساب الذى يدور عليه العمل فى السوق» فيعتمد على حساب العقد دون حساب الهند ، ودون الهندسة وعويص ما يدخل فى المساحة » فهم لا يتجاوزون الكسور العشرة فى تعليمه ، وهو ما يحتاجه فى حياته العملية .

فمنهج الدراسة الذى كان يتبعه المشارقة فى تعليم الصبى ، يؤهله لان يكافح فى الحياة ، فيعطونه من العلوم اكثرها نفعا ، وأيسرها مطلبا ، بطرق مبسطة، سهلة المأخذ . فيمكنه التوسع فى الدراسة – بعد هذا – وذلك بارتياد معاهد العلم ، وان شاء كافح فى الحياة العملية فيمارس فن الاعمال ما يروق له ويسهل عليه .

أطلع المربى الجليل أبو بكر بن العربى على هذا المنهج المبسط ، السهل المنال الكبير الفائدة فاعجب به وأخذ يقارن بينه وبين مناهج الاندلس والمغرب وافريقية .

فأهل المغرب كانوا يعلمون الطفل القرآن الكريم مع هجائه والقراءة الحسنة مع الترتيل ، وان تكون القراءة لنافع ، لانهم يتبعون الامام مالكا الذى أخذ عن نافع ولا يعلمونهم التغنى بالقرآن الكريم .

وأما أهل الاندلس فكانوا يعلمون الصبى القرآن الكريم ، فيقضى أربع سنين فى تعلمه ، وثمانى سنين فى حفظه ، ثم يتعلم العربية وآدابها والموطأ والفقه المالكى ، ولا يهتمون بتعليم الحساب .

فوجد أن طريقة المشارقة أكثر فائدة ، وانهم لا يرهقون الطفل بأمور هو فى غنى عنها ، ولا يحملونه من الاعباء ما تجعله ينفر من التعلم ولا يحرمونه من علوم هو فى أمس الحاجة اليها .

لذا نجده – رحمه الله – يضع طريقة موحدة للجميع ، تكون مفيدة للطالب .

وأول الامور التى اهتم بها ونبه الناس الى اتباعها ، هى طريقة تعلم القرآن الكريم التى كانت عليه فى الاندلس والمغرب ، فان الصبى كان يقضى سنين من حياته فى تعلمه وهجائه وحفظه ، ويبقى محروما من أمور أخرى تفيده ، بينما كان أهل المشرق يقدمون تعليم الخط والعربية والحساب على حفظ القرآن الكريم على أن معظم الطلاب كانوا يحفظون منه ما يعينهم على أداء الصلاة ويستمرون بدراستهم فى المعاهد العلمية ، فيدرسون التفسير والحديث واللغة والحكمة ، ولربما كان أحدهم اماما فى قومه ، وهو لا يحفظ القرآن الكريم ، بل انه المرجع فى تفسيره ودقائقه واحكامه ، وكل ما يتعلق بعلم القرآن الكريم ، وعلى هذا نجد الامام ابن العربى يحبذ هذه الطريقة ، وينتقد ما عليه قومه فيقول : « وللقوم – اى المشارقة – فى التعليم سيرة بديعة ، وهى أن الصغير منهم اذا عقل بعثوه الى المكتب، فاذا عبر المكتب أخذوه بتعلم الخط والحساب والعربية، فاذا حذقه كله او حذق منه ما قدر له خرج الى المقرى، فلقنه كتاب الله فحفظ منه كل يوم ربع حزب ، أو نصفه ، او حزبا . خرج الى ما شاء الله من تعليم او تركه . ومنهم – وهم الاكثر – من يؤخر حفظ القرآن ويتعلم الفقه والحديث ، وما شاء الله قريبا كان اماما وهو لا يحفظه ، وما رأيت بعينى اماما يحفظ القرآن . ولا رأيت فقيها يحفظه الا اثنين . وذلك لتعلموا ان المقصود حدوده لا حروفه وعلقت القلوب اليوم بالحروف وضيعوا الحدود ، خلافا لامر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لكنه انفاذ لقدر الله وتحقيق لوعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتبيين لنبوته ، وعضد لمعجزته .

فهو يتألم جدا من عقم الطريقة التى يسيرون عليها فى تعليم كتاب الله عز وجل ، وارهاق الطفل عدة سنوات فيقول : «ويا غفلة أهل بلادنا فى أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول أمره ، يقرأ ما لا يفهم وينصب فى أمر غيره أهم عليه » .

ونجده فى كتابه « العواصم من القواصم » يندد بقومه أيضا فى تحفيظ المتون والمطولات واضاعة وقت الصبى بالاقوال المتضاربة حيث قال : « فصار الصبى عندهم ـ اذا عقل ـ فان سلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله ، فاذا أحذقه نقلوه الى الادب فاذا نهض منه حفظوه الموطا ، فاذا لقنه نقلوه الى المدونة . ثم ينقلونه الى وثائق ابن العطار ، ثم يختمون له باحكام ابن سهل . فقال «قال فلان التطيلى ، وفلان المجريطى ، وابن مغيث ـ لا أغاث الله نداه ، ولا انا له رجاه ـ فيرجع القهقرى ، أبدا الى الوراء ـ على أمه الهاوية » .

فهو يؤيد ما يذهب اليه المشارقة ، فى تبسيط العلم للطالب ، وتقديم الاهم النافع على غيره ، واعطاء الطالب من كل علم ما يفيده فى حياته العملية ، ولا يرهقه وقت التعلم ، فيبعدونه عن المجادلات غير المجدية ، وتضارب الآراء ، وكثرة القيل والقال ، وعدم اكراهه على حفظ ما لا يفيده من المتون .

وقد اقترح أن تكون مناهج الدراسة معتدلة تناسب قابليات الطلاب ، وما يحتاجونه ، فقال فى هذا : « والذى يجب على الولى فى الصبى اذا كان أبا ـ او وصيا او حاضنا والا الامام ـ اذا عقل ـ أن يلقنه الايمان ويعلمه الكتابة والحساب ، ويحفظه أشعار العرب العاربة ، ويعرفه العوامل فى الاعراب ، وشيئا من التصريف . ثم يحفظه اذا استقل واستوفى العشر الثانى من كتاب الله ـ وهو أمر وسط متساو بين أهل المشرق والمغرب ، ثم يحفظه سنن أصول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى نحو من ألفى حديث فى الابواب التى تقحها البخارى ومسلم والتى هى عماد الدين . (1)

فالامام ابن العربى يحبذ طريقة التدرج فى تعليم الصبى وعدم ارهاقه بالتحفيظ والتكرار ، حتى اذا ما نهض ، واطلع على كلام العرب ، يعلم القرآن الكريم فيقبل عليه بشوق زائد ، وفكر حاضر وقد شرح سبب تقديم تعليم الشعر والعربية والحساب على حفظ القرآن الكريم ودراسته ، فيقول : « لان الشعر ديوان العرب ويدعو الى تقديمه ، وتقديم العربية فى التعلم ضرورة فساد اللغة ، ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن به حتى يرى القوانين ، ثم ينتقل الى درس القرآن ، فانه يتيسر عليه بهذه المقدمة »

هذا هو المنهج المبسط الذى اقترح ابن العربى أن يسير عليه قومه ، فى تعليم اولادهم ، تعليما يناسب أعمارهم وقابلياتهم ، ويؤهلهم للدين والدنيا .

وله آراء اخرى لا يتسع المقال لبسطها ، وهى كثيرة فى رحلته ومؤلفاته فهو من اعلام الاندلس ، العاملين الذين أحبوا أن ينقلوا الى بلادهم كل مفيد ونافع من حضارة المشارقة .

الديوه جى ـ الموصل

أهم المصادر التى اعتمدنا عليها

1 ـ كتاب الصلة ـ عبد الملك بن بشكوال ـ مجريط 1882 م. (: 521ـ522)

2 ـ المغرب فى أخبار المغرب ـ لابن عذارى ـ نشره شوقى الضيف ـ القاهرة 1952 (1 : 251)

3 ـ آداب المعلمين ـ لسحنون ـ نشره الاستاذ عبد الوهاب حسن حسنى ـ تونس 1248 .

4 ـ كتاب المعلمين للجاحظ ـ نبذة منه نشرت على هامش الكامل للمبرد ـ مصر .

5 ـ نفح الطيب ـ للمقرى طبعة دار المأمون (6 : 58ـ105)

6 ـ مطمح الانفس ومسرح التأنس ـ الفتح بن خاقان مصر 1251 (71ـ72)

7 ـ وفيات الاعيان ـ ابن خلكان مصر 1210 (1 : 489)

8 ـ شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ـ ابن العماد الحنبلى (4 : 141)

9 ـ مقدمة ابن خلدون ـ مصر 1222 (209ـ210) .

10 ـ التربية والتعليم فى الاسلام ـ لكاتب المقال (مخطوط) وغيرها من المصادر الاخرى .

(1) ثم زاد على هذا علوما اخرى اذا استمر الطالب فى دراسته .